شجرة الياسمين

بقلم
د. يوسف عزالدين عيسى

كانت احب الأزهار عندى أزهارالياسمين ؛ ولكننى كلما تنسمت الآن عبيرها غمرتنى موجة من الحزن والألم ورجعت بى الذكريات الى عدة سنوات خلت عندماكنا نسكن حدائق القبة بالقاهرة .

كان منزلنا ومنزل جيراننا تضمهماحديقة واحدة متسعة . وكنت اقضى سحابة يومى فى عملى وأعود فى المساءمتعبا ، فأستلقى على الفراش أقرأ بعض الصحف ثم أنهض فأتناول عشاءخفيفا وأعكف على المطالعة والكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل ..

وكنت احيانا عندما امل القراءة ..افتح نافذة حجرتى التى تطل على ظهر منزل الجيران فأستقبل عبيرامنعشا منبعثا من شجرة ياسمين صغيرة تحبو على حائط منزلهم ..وكنت لا أعلم عن هؤلاء الجيران أكثر من أنهم عائلة صغيرة ، رجل وزوجه وطفلفى نحو الخامسة من عمره ، ولا أذكر اننى رايت الزوجة أكثر من مرة اومرتين .. واذكر جيدا أنها كانت فى مقتبل العمر .. نحيلة .. ذات وجهترتاح العين لرؤياه .. وكان من عادة الزوج أن يرجع الى منزله متأخرا ..فكانت الزوجة تظل مع طفلها فى المنزل حتى اذا نام بقيت هى ساهرة الى أنيعود الزوج ..

وذات مساء عندما كنت مستغرقا فىالقراءة سمعت الطفل يبكى بكاء شديدا وينادى أمه ، فلم أعره اهتماما فى اول الأمر ، ولكن البكاء لم ينقطع ولم أسمع فى حياتى بكاء يفتت الأكباد كبكاء الطفلفى ذلك اليوم ..

فتحت النافذة وناديت الطفل وسالته ما الذى يبكيه .. فاجابنى وهو يجهش بالبكاء « أمى » فقلت له « مالها ؛ هل ضربتك ؟ » فقال : « كلا .. لقد ماتت ! » فأسرعت انا واخى واختى التى كانت تقيم معى فى ذلك الحين وذهبنا الى منزلهم .. وهناك فى ذلك المنزل رايت منظرا لن انساه .. امراة جميلة فارقتها الحياة .. ملقاة على أرض الغرفة .. وعلى فمها شبه ابتسامة شاحبة .. وما كاد الطفل يرانى حتى القى بنفسه على وهو يبكى .. لقد توفيت تلك المراة فجاة بسكتة قلبية عاجلتها بينما كانت تداعب طفلها الصغير .. ولم يكن بالمنزل الا هى وهو .

ذهبت لاستدعاء الزوج من المقهى الذى اعتاد الجلوس فيه ، وتعجبت عندما وجدته يستقبل الخبر برباطة جأش غريبة ، وأسرع الى المنزل وقام بالاجراءات اللازمة فى مثل تلك الأحوال ...

وبعد أيام قلائل من ذلك الحادث ، بينما كنت اسير فى احد شوارع القاهرة المزدحمة صدمتنى سيارة كانت مندفعة بسرعة جنونية ، فلم اشعر الا وانا بالمستشفى بين يدى الطبيب واتضح ان العمود الفقرى قد اصيب واستغرق علاجى نحوا من ثلاثة اشهر نسيت من خلالها كل امور الدنيا ... وألهانى ما اصابنى عن التفكير فى اى امر آخر ... ومرت الأشهر الثلاثة بطيئة متثاقلة ، وخرجت من المستشفى فى نهايتها ضعيفا معتلا من أثر تلك الصدمة التى كدت أذهب ضحيتها .

وعندما رجعت الى المنزل كان اول شىء فعلته أن اسرعت الى نافذة حجرتى افتحها لاستقبل عبير الياسمين وحانت منى التفاتة نحو نافذة منزل الجيران.

فوجدت امراة لم أرها من قبل تطل من نافذة غرفة الطفل ؛ فسألت اختى عن هذه المراة وهل هى ساكنة جديدة حلت محل العائلة الأولى التى كانت تسكن ذلك المنزل فاخبرتنى اختى أن العائلة باقية كما هى لم تغادر المنزل ، وان هذه زوجة جديدة لذلك الرجل الذى فقد زوجته منذ ثلاثة اشهر .. فتالمت عندما علمت ذلك .. وظللت مدة طويلة أتحاشى فتح النافذة التى تطل على منزلهم حتى لا اثير فى ذاكرتى حادث وفاة الزوجة الأولى ..

وعلمت فيما بعد أن تلك الزوجة الجديدة تقسو على الطفل المسكين وترهقه لأتفه الأسباب بعقوبات فوق طاقة سنه ، فكثيرا ما كانت تحبسه فى الحجرة وتترك المنزل هى وزوجها لنزهة طويلة او مشاهدة السينما ، واحيانا كانت تهمل اغلاق نافذة حجرته وهو نائم فى اقسى ليالى الشتاء .. فتظل النافذة طول الليل تقذفه بسهام قتالة من البرد القارس ..

رجعت من عملى مبكرا فى احد الأيام وفتحت النافذة فرايت نافذة حجرة الطفل مفتوحة ورايت شجرة الياسمين قد امتدت حتى بلغت النافذة تقريبا ، وبعد قليل شاهدت الطفل مقبلا نحو

النافذة فتواريت حتى لا يرانى وظللت اراقبه خفية .. رأيت على وجهه اثرا واضحا للبكاء ، ثم وجدته يصعد على كرسى ويطل من النافذة ثم يضع رأسه بين يديه ويبكى بكاء حارا حتى ان الدموع كانت تتساقط من عينيه قطرات ..

وعند ذلك رأيت منظرا عجيبا سأظل طول حياتى لا أدرى له تفسيرا .. رأيت قطرة من دموعه تسقط فوق شجرة الياسمين ، فشاهدت الشجرة تنتفض كأنها تجهش بالبكاء .. ورأيت الياسمين يتساقط منها كما تتساقط الدموع ..

هل اهتزت الشجرة من تلقاء نفسها؟ او هزها ريح قوى فى تلك اللحظة ؟ لست أدرى .. !

ويبدو أن هذا المنظر قد استرعى انتباه الطفل كما جذب اهتمامى لأننى رأيته يكف عن البكاء .. ويثبت بصره نحو الشجرة مشدوها .. ومنذ ذلك الحين نشأت بين الطفل وشجرة الياسمين الفة وشبه اتصال روحى ! فكان كلما تألم فزع الى شجرة الياسمين كأنه يبثها شكواه .. فذات مرة عند عودتى من خارج المنزل وجدت الطفل جالسا

على أرض الحديقة عند جزع شجرة الياسمين ، وقد لف يديه حول الجذع؛ واسند رأسه اليه وكان مستسلما لنوم عميق .. ذهبت نحوه وايقظته فرايت فى عينيه آثار الدمع ، فحاولت اقناعه بالذهاب الى المنزل فالشمس قوية والحر لا يطاق ، فلم يقتنع ، وظل جالسا بجوار جذع الشجرة .. لقد كان منظر الشجرة فى ذلك اليوم يحمل معنى غريبا من معانى العطف على ذلك الطفل .. ولكن كيف ظهر لى ذلك ؟ لست أدرى ولكنى شعرت بذلك شعورا قويا ..

ومرت أيام واشهر ، وذلك الاتصال العجيب متمكن بين الطفل وشجرة الياسمين الصغيرة ، فكان كلما مرض الطفل ذبلت أزهار الياسمين وتساقطت واصبح منظر الشجرة يحمل معنى الحزن العميق الذى يشعر به كل من ينظر اليها دون ان يعرف السبب .

واذا تحسنت صحة الطفل انتعشت الشجرة وازدهرت .. حتى اننى بدون أن اشعر أصبحت اعرف حالة الطفل بالضبط بمجرد النظر الى شجرة الياسمين ، فان كانت منتعشة مزدهرة فهو فى حالة حسنة وان كانت ذابلة ، فهو فى حالة سيئة ..

وفى صباح احد الأيام نظرت فاذا الشجرة ذابلة وازهارها منطوية على نفسها ومنكمشة ، فقلقت على صحة الطفل .. سألت عنه فعلمت انه مريض .. ذهبت الى منزله وكان ملازما فراشه ودرجة حرارته مرتفعة واخذ يهذى . . وعندما رآنى نظر الى باكيا وقال شجرة الياسمين .. ثم اغمض عينيه ونام ..

وفى اليوم التالى نظرت الى الشجرة فرايتها ما زالت ذابلة ، بل اكثر ذبولا منها بالأمس .. وهكذا ظلت الشجرة تذبل يوما بعد يوم وكذلك كانت صحة الطفل تسوء يوما فيوما ..

وأصبحت عادة عندى أن ابكر فى القيام واسرع نحو النافذة افتحها لأرى شجرة الياسمين .. ولكن فى ذلك اليوم قمت كعادتى مبكرا وفتحت النافذة ونظرت فلم اجد اثرا لأزهار الياسمين ، بل كنت لا اجد اثرا لشجرة الياسمين نفسها ، فلقد تركت الشجرة الحائط الذى كانت قد تسلقته والتوت واصبحت كومة ذابلة ملتوية على نفسها وملقاة فوق جذع جاف !

شعرت بالحزن يغمرنى عندما شاهدت هذا المنظر وارسلت من يطمئننى على صحة الطفل فعاد يخبرنى أن الطفل قد فارق الحياة فى منتصف الثالثة صباحا .. فاحسست كأن يدا لطمت قلبى ..

ومنذ ذلك الحين لم أفتح نافذة حجرتى المطلة على منزلهم اذ خيل الى كأن رائحة الحزن والأسى تفوح من حطام شجرة الياسمين ، وتراءى هذا الحطام لعينى كأنه مقبرة موحشة ..